التكافل النبوي مع الصحابة

عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله تعالى رحمة للعالمين، نبينا محمد الصادق الأمين وآله وصحبه أجمعين، وبعد: فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم رحمة بكافة العوالم، فكيف بأمته أو بأصحابه الكرام؟ قال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح:٢٩)

إنها صور عجيبة رائعة يرسمها القرآن الكريم حول رسوله محمد صلى عليه وسلم وأصحابه الكرام، إنهم رحماء بينهم يقيمون عواطفهم وسلوكهم على أساس عقيدتهم وحدها، فهم كالزرع القوي الذي يشد ما حوله من نبات. وهكذا كان صلى عليه وسلم لأصحابه في العون والحب والشد في الأزر، وهم كانوا له كذلك. ونقف مع هذه الواحة الإيمانية النبوية ذات الظلال اليانعة العالية لأمة الإسلام عبر مر الأزمان وذلك في الصورتين الآتيتين:

الصورة الأولى:

إنها صورة المؤمن الفقير إلى ربه تعالى، الحنون على إخوته اليتامى، المؤثر لهم على ما يتوق إليه كل إنسان، إنه جابر بن عبد الله الأنصاري، الذي ضعف جمله أثناء عودته من غزوة ذات الرقاع في سنة ٤ ه حتى تأخر عن بقية أصحابه، فيتفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدركه ويسأله مالَك يا جابر؟

قال : قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا.

قال: أنخه. قال: فأنخته، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ثم قال:أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصا من شجرة. قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فنخسه[١] بها نخسات، ثم قال: اركب .فركبت، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة[٢] .

وبعد ذلك يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفقة تجارية مع جابر: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟

قال: قلت: يا رسول الله بل أهبه لك. قال :لا، ولكن بعنيه. قال: قلت: فسمنيه يا رسول الله. قال :قد أخذته بدرهم. قال: قلت: لا. إذن تغبنني يا رسول الله! قال :فبدرهمين. قال: قلت: لا.

قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمنه حتى بلغ الأوقية[٣] .

قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟

قال: نعم قلت: فهو لك ؛ قال :قد أخذته.

قال: ثم قال :يا جابر هل تزوجت بعد؟

قال :قلت: نعم يا رسول الله. قال أثيباً أم بكراً؟ قال :قلت: لا، بل ثيباً. قال:أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك.

قال :قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد ،وترك بنات له سبعاً، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهن.

قال: أصبت إن شاء الله ،أما إنا لو قد جئنا صرارا[٤] أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا، فنفضت نمارقها. قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق[٥] قال إنها ستكون فإذا أنت قدمت ،فاعمل عملا كيساً[٦] .

قال: فلما جئنا صراراً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور[٧] فنحرت، وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا. قال :فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فدونك، فسمع وطاعة. قال :فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم .قال: ثم جلست في المسجد قريباً منه .قال: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فرأى الجمل .فقال :ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر قال: فأين جابر؟ قال :فدعيت له. قال: فقال :يا بن أخي! خذ برأس جملك، فهو لك، ودعا بلالاً، فقال له :اذهب بجابر ،فأعطه أوقية. قال :فذهبت معه، فأعطاني أوقية ،وزادني شيئاً يسيراً. قال: فوالله ما زال ينمي عندي، ويرى مكانه من بيتنا، حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا يعني يوم الحرة[٨] .

يا ألله! أيّة مشاعر تلك التي يعلّمنا إيّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية، ينظر في أحد جنده وإذا به أحد أبناء المجاهدين الأوائل الذين قدموا أنفسهم ،وباعوها في سبيل الله، وقد ترك عائلة كبيرة فقيرة لذا لابد من رعاية أسرة ذاك الشهيد وابنه المجاهد الحبيب بطريقة حسية رفيعة، فلم يكن صلى عليه وسلم يفعل شيئا عبثا بل كانت أفعاله مقرونة بالحكمة ومؤيدة بالعصمة فهو قد اشترى الجمل من جابر، ثم أعطاه الثمن ،وزاده عليه زيادة ،ثم رد الجمل عليه .وقد كان يمكن أن يعطيه ذلك العطاء دون مساومة في الجمل ولا اشتراء ولا شرط ولا توصيل، فلتنظر بعين الاعتبار إضافة لما يلي:

- إنه التكافل المعنوي بالدرجة الأولى حيث إنه صلى الله عليه وسلم ترك المشيَّ في مقدمة الجند كما هي عادة القادة بل مشى مع آخر الجند، إنه جابر بن عبد الله الذي يظهر على شاكلة المساكين فوق تلك الناقة الضعيفة، وهذا التكافل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم للمساكين لا يقتصر في الرغبة بالمشي معهم فحسب في هذه الدار بل في حب الحشر معهم في الدار الآخرة قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة...) [٩].
- إن النبي صلى الله عليه وسلم ليعلمنا آداب التكافل حيث لم يعط جابر بن عبد الله المال بطريقة مباشرة بل بطريقة فيها ملاطفة بديعة.

- يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة استغلال المناسبات لتقديم الإعانات فمناسبة جابر رضي الله عنه هي زواجه، وقد قال صلى الله عيه وسلم مشيراً إلى فضل من يعين الراغبين في العفاف: (ثلاثة حق على الله عز وجل عونهم، المكاتب [١٠] الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله)[١١].

كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يفوّت تلك المناسبة في تأكيد سنّة عظيمة تساهم ولو بشكل بسيط في التكافل الاجتماعي ،وذلك في الإطعام حيث علّمنا عليه الصلاة والسلام الوليمة في الزواج، وقد فعلها هو ،وأعان عليها، ونَدَب من يتزوج إليها مع مراعاة حال العريس، فالنبي صلى الله عليه وسلم أولم بشاة مرّة، وأولم بالتمر والسّمن مرّة أخرى حين تزوج صفية بنت حيي [١٢].

- لقد أقر النبي صلى الله عليه فعل جابر التكافلي الأُسريّ مع أخواته البنات وذلك باختيار امرأة واعية عاقلة لتقوم على تربيتهم ،وكانت تلك المرأة كذلك حتى أنها خففت عن جابر بن عبد الله في قصة الخندق العظيمة الآتية في الصورة التالية.

الصورة الثانية: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

تأتي الصورة الثانية هذه في أثناء غزوة الخندق في سنة ٥ هـ حيث أن المشهد كان الصحابة في جوع شديد، فيأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك الصحابي الذي حنّ عليه الرسول الكريم في الصورة الأولى إنه جابر.

تمر ثلاثة أيام لا يذوق فيها الصحابة طعاماً حتى حبيبهم محمّد صلى الله عليه وسلم حيث شدَّ الحجر على بطنه. فيأتي جابر فيقول: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فأذن له فقال لامرأته: إني رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً [١٣] شديداً ما في ذلك صبر فعندك شيء؟

فيقول رضي الله عنه: فأخرجت لي جراباً[١٤] فيه صاع من شعير، ولنا عناق فذبحتها، وطحنت ،ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في برمتها ،والعجين قد انكسر ،والبرمة بين الاثافي قد كادت أن تنضج ،ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه، فجئته فسررته فقلت: اطعم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان قال "كم هو؟" فذكرت له، قال: "كثير طيب"، قل لها: لا تنزع البرمة [١٥] والخبز من التنور حتى آتيكم واستعر صحافا " ثم صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أهل الخندق إن جابرا صنع لكم سؤرا فحيهلا بكم[١٦]" .

وفي رواية أخرى فقال «قوموا». فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار،ومن معهم .قالت :هل سألك؟ قلت: نعم فقال (ادخلوا ولا تضاغطوا). فجعل يكسر الخبز ،ويجعل عليه اللحم، ويخمر الْبُرْمَةَ والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ،ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية قال :(كلي هذا ،وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة).

- لقد أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل وحده مع رجل أو رجلين كما دعاه جابر والناس جياع فقال: هلمّوا يا أهل الخندق بكرم عظيم منه فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمعجزة عظيمة بيّنة جرت على يده صلى الله عليه وسلم.

إنه إحسان بإحسان، لقد أحسن جابر لمن أحسن له وللناس أجمعين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر المحسن الحبيب إلى أصحابه الجائعين ،فأحسن إليهم ،فدعاهم مع حسن ظنّ بالله مقرون باليقين، فينزل وابل الإحسان الربانيّ على من أحسنوا له في الإيمان والتقوى ،فيفتح لهم من بركاته، فهي معادلة عظيمة مذهلة "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" .

- لقد ظن المنافقون بتآمرهم وبوسائل احتكارهم وحربهم المنوعة سيستطيعون أن يفتتوا هذا الدين فخرجت خزائن الرحمن التي لا تنفد لتقول للناس أن الله بيده خزائن السموات والأرض يعطيها من يشاء قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ المنافقون الآية: ٧

- إن هذه القصة العظيمة تبين دور امرأة جابر بن عبد الله رضي الله عنهم وذلك فيما يلي:

١. حيث إنها استجابت لمشكلة زوجها ،ولم تبخل في شعير عندها في شدة تمرُّ زمن حرب شديدة، وذلك لله ورسوله فأخرجته ،وقامت بطحنه وعجنه، مبتغية رضاء الله ورسوله ثم زوجها.
٢. قامت رضي الله عنها بذبح العناق الصغيرة بيدها وأي امرأة في زماننا تفعل مثلها!
٣. قامت بالتخفيف عن جابر رضي الله عنه عندما قال لها قد جاء رسول الله بالمهاجرين والأنصار فقالت له :هل سألك؟ فقال لها نعم. وفي رواية عن البيهقي: فقالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا، فكشفت عني غماً شديداً.

فما أروع ذلك التكافل الاجتماعي الممتلئ بالإحساس والتعاضد في مشاعر وسلوك كل واحد في المجتمع. وكيف لا يكون ذلك والتكافل النبويُّ نصب أعينهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأكرمهم وأعطفهم إنه كما قال مولانا تعالى عنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة الآية: ١٢٨

الهوامش:

١. (نخس) نَخَسَ الدَّابَّةَ نَخْساً غَرَزَ جنبها أَو مؤخّرها بعود أَو نحوه حتى تَنْشَط.
٢. أَي بياريها في السير ويماشيها.
٣. أَرَبُعُونَ درْهَمًا.
٤. صِرَارِ بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ وَالتَّخْفِيفِ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بِظَاهِرِ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْهَا مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ. وهي الوسائد التي يصف بعضها إلى بعض، وقيل: النُّمْرُقَة الوسادة التي يجلس عليها.
٥. أي تودد في العشرة لطلب النسل.
٦. فَتْحِ الْجِيمِ وَهِيَ مِنَ الْإِبِلِ وف رواية أخرى عن البخاري ومسلم فلما قدم صرارا أمر ببقرة فذبحت فأكلوا منها.
٧. أي يوم الوقعة التي كانت حوالي المدينة عند حرّتها بين عسكر الشام من جهة يزيد بن معاوية وبين أهل المدينة سنة ثلاث وستين.
٨. أخرجه الترمذي بإسنا صحيح عن أنس رضي الله عنه ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ج ٤ ص٥٧٦. إحياء التراث العربي.
٩. المكاتب: العبد الذي اتفق مع سيده على حريته مقابل مالٍ معين.
١٠. أخرج الترمذي وقال: حديث حسن.
١١. ونص الحديث عن أنس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أعتق صفية، وتزوجها وجعل عتقها صداقها، وأولم عليها بِحَيْسٍ قَالَ أَهْل اللُّغَة: الْحَيْس يُؤْخَذ التَّمْر فَيُنْزَع نَوَاهُ وَيُخْلَط بِالْأَقِطِ- وهو لَبَنٌ مُجَفَّفٌ يَابِسٌ- أَوْ الدَّقِيق أَوْ السَّوِيق. والسويق طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير سمي بذلك لانسياقه في الحلق.
١٢. أي ضمورا في بطنه من الجوع.
١٣. وعاء من جلد.
١٤. إناء من حجر أو مدر يطبخ فيه الطعام.
١٥. كلمة استدعاء فيها حث أي هلموا مسرعين.
١٦. أخرجه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.